قراءات في العمق و الخلفيات لكتاب جيوبوليتيك الدم

التاريخ الأسير و الجغرافيا المتصدعة

للكاتب الصافي سعيد

بلفراس بومدين

طالب دكتوراه / جامعة وهران 2

تحت إشراف: اد برياح محتار/ جامعة وهران 2

البحث عن الحرية، والمواطنة مطلب حايث الوجود السياسي للامة العربية، فكانت المواطنة مطلبا وجوديا عند ابناء الأمة، والمسار التاريخي للمدنية العربية، يؤرخ عثرات، وتراجعات في اليات تحقيق المشروع، وقد شكل الربيع العربي عند الأمة منفذا، وأداة لتحقيق المطلب، فكانت تونس الخيط الابيض في ليلاء المدنية العربية، فاشرأبت الاعناق نحو الأمل.. ولكن الدم كان محتوى الكأس.

لم يكن للأمة العربية أن تستوعب هذا الانفجار الكبير للدم داخل الوطن العربي فبالرغم ما يملكه من ثروات و مزايا في جغرافيته وعوامل مشتركة في أمته يتخبط و يعيش الأزمات من خلال سياسته و يفتتح الكاتب و الباحث التونسي الصافي سعيد [1] كتابه جيوبوليتيك الدم فيقول: " إما أن ينفجر الماء أو يتفجر الدم ... إما أن ينفجر النفط أو يتفجر الدم ... الآن لقد انفجر النفط و تفجر معه الدم "[2] فيقرأ الكاتب الجغرافيا السياسية للوطن العربي الذي انتقل من القيد و الهيمنة العثمانية إلى القيد والهيمنة الأوروبية (الغربية) ثم إلى جغرافيا متصدعة و قيد نزاعات دموية داخلية .

فتاريخ العالم العربي الذي قد عايش السلطة بكل ممارساتها العنيفة لا يزال يتخبط في تكوين الدولة حيث مازالت أنظمته مبنية على الأجهزة الأمنية و العسكرية التي تفرض سلطتها ، وما إن تنقسم يسقط النظام ثم تسقط الدولة كما حدث في العراق و ليبيا و اليمن و كادت أن تسقط كذلك مصر و تونس و ينجر عن هذا السقوط جغرافيا خصبة لبروز الكيانات الافتراضية و الجيوش الموازية .

و رغم التطور التكنولوجي خاصة في وسائل الإعلام و نقل المعلومات وسرد الأحداث إلا أننا لا نعرف ما سيكشفه التاريخ البعيد عما نعيشه اليوم و يقول الصافي سعيد " بإمكاننا أن نخبر مؤرخينا

---

[1] – الصافي سعيد كاتب و صحفي و روائي تونسي ولد في 22 سبتمبر 1953 يعتبر واحد من أهم رجال الرأي في تونس منذ 2011 خاصة بعد الربيع العربي الذي كان قد تعرض له في أحد كتبه " خريف العرب " 2005 و كتب في مجال المستقبليات التي طبقها على تونس في رؤية استراتيجية " المعادلة التونسية كيف نصنع المستقبل و له أكثر من 17 مؤلف

[2] – جيوبوليتيك الدم : التاريخ الأسير و الجغرافيا المتصدعة ، الصافي سعيد ، الناشر سوتيميديا – تونس ، ط 2 ، جانفي 2016 ص 03

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

القادمين أن معانات جمع الحقائق صعبة ودرجة التزوير عالية و المعلومات متدفقة وغير دقيقة وبالتالي فإن أي حدث لا يصبح تاريخيا إلا حين يصبح كتلة باردة بين أيدي المؤرخين "[1]

فاليوم يلح علينا الواقع لإعادة قراءة التاريخ بأدوات معاصرة بعيدا عن العاطفة وعن التقديس كما أن التاريخ العربي الحديث لم نستفد من تجاربنا فيه و يرجعه الباحث الصافي سعيد لافتقاده إلى الروح و العقل و الإرادة و لن يتحول إلى قاعدة بناء ما لم يهيمن على مجاله الحيوي ويحصن جغرافيته المتصدعة و يقيم نظامه الجيوبوليتيكي ، فالإقليم العربي الآن ليس مسرحا للاعبين الكبار فقط (الدول) بل بداخله لاعبين ما تحت الدولة مثل داعش والقاعدة و البشمركة وأنصار الشريعة والسلفيين و جماعات الإرهاب و العشائر و الطوائف و الهويات المتقاتلة [2]

فالابتعاد عن الديمقراطية و انحراف العدالة و التقليص من الحريات قد كون العنف داخل الوطن العربي استثمره الغرب المتعطش للطاقة و الهيمنة في بسط نفوذه عن طريق الفوضى الخلاقة .

و إن اتحاد الدول الأوروبية لم يأتي إلا بعد حروب دموية و صراعات طويلة جعلها تقرأ تاريخها و تستفيد منه بتلاحم كبير و طي صفحة الصراع و فتح صفحة الكلمة الواحدة و القرار المشترك و العملة الواحدة حيث كتب عبد الله عروي (حول أوروبا الفكرة الأسطورة و الوهم) فقال: " أن أوروبا قطع متناثرة جمعت بعناية من وسط الرعب و الحروب " [3] ولم يستوعب الوطن العربي التلاحم الأوروبي كما أنه ليس فقط يعيش حرب داخلية أهلية بل كذلك حرب ضد إسرائيل التي أصبح يعتبرها الجميع كما اعتبرها هنتغتون أن:" النهاية الأبدية لمثل هذه الحرب هي تشبه المعجزة الإنسانية " [4]

فخلق إسرائيل في وسط الوطن العربي الذي عجز عن تحرير فلسطين جعله يعيش أزمات و بمرور الزمن أحيى الصدع الديني و عمق الصدع الجغرافي السياسي و يفسره الكاتب الصافي سعيد أنه من رحم الصدع الأم اليهودي/الإسلامي ولدت كل الصدوعات الأخرى سواء الحرب العراقية الايرانية التي دامت 8 سنوات و الحرب بين عالم الشيعة و عالم السنة و احتلال الكويت في 1991 من قبل العراق و لن تكون حرب السعودية ضد اليمن هي الصدع الأخير في العالم العربي و هي خارطة متداخلة و متشابكة من الصدوعات لا يمكن معالجتها إلا بمشروع كبير [5] .

و من نتائج هذه الصدوعات: الربيع العربي و المنظمات الإرهابية كداعش الذي جعل الوطن العربي يعيش في عدة مناطق فوضى كبيرة و أضحت الدول العربية فاشلة في بسط سيطرتها على إقليمها

---

[1] المرجع نفسه ص 12

[2] – المرجع نفسه ص 13

[3]– عبد الله العروي 1933 مقال حول أوروبا : الفكرة و الأسطورة و الوهم بتاريخ 28 – 06 – 2014 مجلة فكر وفن

[4]– صامويل هنتغتون صدام الحضارات – الدار الجماهيرية للنشر – طرابلس 1999 ترجمة د. مالك أبو شهيوة ص:32

[5]– جيوبوليتيك الدم مرجع سابق ص 29

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

و عاجزة عن التقدم و بنظرة جيوسياسية للكاتب فالعالم سواء كان 184 دولة قبل الحرب الباردة أو 192 دولة مطلع الألفية الثانية أو كان عدد لا متناهي من الدول القومية و القبلية و الدينية هو في النهاية سيظل عالما متصدعا و منقسما بين الشمال و الجنوب و بين الشرق و الغرب .

و لم تكن الشعوب التي قامت بالربيع العربي لتشك في نخبها أن تعجز على النحو الذي نراه اليوم و أن تتبخر الشعارات و تعود مشقة البناء من جديد و يتولد من رحمها العنف الذي يؤكد عله الصافي سعيد " إنه العنف التأسيسي الذي يظل يتناسل من حضارات بعيدة لبناء حضارات جديدة " [1] .

كلما تدهورت أوضاع الوطن العربي من احتلال عسكري أو اقتصادي و فشل مؤسساتي يرجعه العرب الى قول " لأننا تخلينا عن الله فتخلى الله عنا " بل إن تشبتهم بالله هو بمثابة طلب المعجزة من عنده و ليس البحث عن التطور الحضاري و المعرفي و الإقدام على العمل الفعال و الابتكار و الاندماج في العالم الحديث ، إن السبب الأساسي في هذا الوضع هو أن العرب لم يصفى تاريخهم و لم يستفيدوا منه .و من بلد عربي لآخر تستمر الألسن و تطغى المحاكمات حول الأسبقية في الزمن و العراقة و الأقدمية كما لو أن الدول الحديثة تقاس بالزمن و لو أدرك العرب الذين يتكلم بعضهم عن ثلاثة آلاف عام و بعضهم يذهب نحو سبع آلاف عام أن الأسبقية و الأقدمية تعني التقدم للوصول إلى القمر قبل أمريكا التي لا يزيد عمر دولتها عن ثلاث مئة سنة هكذا حين تعجز النخب عن بناء حاضرها تتجه إلى الثرثرة حول ماضيها لكي تجلب الفخامة المفقودة و الكرامة المهانة [2] .

لقد كانت فلسطين نقطة تشارك جميع الدول العربية في تجمعاتهم التي كانت تحمل شعارات أكثر من عمل و اتحاد و منذ عدة عقود لم يقدم أي بلد عربي العون لبلد عربي آخر لإنقاذه من أزمة و كأن الجميع تجرد من انتمائه للوطن العربي و أضحى يتحالف مع الأجانب و انقلبت المفاهيم فأصبح العدو صديقا و الصديق عدوا .

و لهذا كانت ولادة داعش سهلة و بأرضية مهيأة للتوسع و بسط السيطرة و قال نابوليون بونابارت ذات مرة " يمكنك أن تتمرد إذا نجحت فإنك ستصبح بطلا و إذا فشلت فإنك ستصبح أسيرا و إذا أبديت مقاومة فإنك ستظل خارج القانون " فخلافا للجماعات الإرهابية كتنظيم القاعدة و غيرها فلقد أصبحت داعش اليوم تضم جيش من المقاتلين أضعاف مضاعفة من التنظيمات الإرهابية الأخرى و إن هؤلاء المقاتلين يمرون إلى سوريا تحت نظر الدول الغربية و يوجد حوالي خمسة آلاف مقاتل داخل هذا الجيش العالمي من أوروبا فقط و إن هؤلاء لا يصلون إلى سوريا أو العراق بالمظلات أو الطائرات و إنما هم يعبرون الحدود تحت نظر الجمارك و الشرطة و المراقبين الدوليين و بعلم الدول الإقليمية و الأوروبية و

---

[1]– نفس المرجع ص 65

[2]– نفس المرجع ص 68

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأمريكية . و انه فعلا عدد مخيف إذا عرفنا أنه ينحو إلى الاستقلالية و الانفصال عن بلاده فمنذ أن يتموقع على الأرض يتحول إلى جيش عالمي ينتقل من منطقة إلى منطقة و من دولة إلى دولة دون تردد ولا مراقبة.و كيف تفكر الدول اليوم في المستقبل من أجل احتواء هذا الجيش العالمي قبل أن ينفلت إلى ساحات أخرى خاصة و أنه يستعمل حرب العصابات في تحركاته التي قد تصل إلى أوروبا ؟

فحين يمتد الإرهاب تمتد الحرب عليه ومن مكان إلى مكان حسب المحلل الصافي سعيد قد تنتقل هذه الحرب إلى الأناضول ثم تخترق الحدود لتصل إلى جنوب أوروبا و منها إلى غربها حيث يكشف التاريخ كيف أن الذي لا يعرف عدوه جيدا أو الذي لا يعرف متى يوقف الحرب أو الذي ينساق نحو أعدائه إلى اللامكان يصبح أعمى ويفقد طريق العودة أو طريق النصر، فلقد ظل نابوليون مصرا على غزو روسيا حتى فقد كل مجده و مجد بلاده و تكرر ذلك مع هتلر و يمكن أن يحدث للولايات المتحدة الأمريكية فهي لم تهزم أمام الجيوش النظامية و الحروب الكلاسيكية و لكنها لا تستطيع أن تتكر هزيمتها أمام حرب العصابات الفيتنامية[1].فإذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية تريد من حربها على الارهاب تقويض الجغرافيا السياسية للشرق الأوسط فقد نجحت.

أما إذا كانت فعلا تريد القضاء على الارهاب و الاستبداد فقد فشلت بل أصبح عليها أن تواجه تداعيات لم تكن تتخيلها فإذا تمدد هذا الإرهاب إلى أوروبا فان الحرب على الإرهاب ستصبح حربا على الذات لتدمير الهيكل من الداخل[2]

ان الدارس لعلم النفس وعلم الاجتماع يجد سمة مشتركة بين مرتكبي العنف قاطبة و هي أن عدوانيتهم لا تتجه فقط و باطراد الى الآخرين و إنما تتحول إلى طاقة تدميرية ضد أنفسهم ذاك ما نجده واضح في كتاب جيوبوليتيك الدم حيث إذا كان " الإرهابي المسيس " يستغل هدفا ساميا مثل حق يقدسه أو ايمان بثورة أو الدفاع عن مهمة عليا فذلك ينجيه من الاستخدام و إعادة التوجيه و البرمجة ، أما إذا كان هذا الارهابي مأجورا أو مرتزقا أو هاويا فإن انتصاره أو بالأحرى انتحاره هو معاقبة نفسه بنفسه ولا شك أن الذي يوجه الأوامر يقتات من حتف أنصاره . و بما أن القنابل البشرية الحية أصبحت تعد بالآلاف في سوق الإرهاب فإن عنفها سوف يرافق البشرية طويلا خلال القرن الواحد و العشرين و على الولايات المتحدة التي اختارت العولمة أن لا تحزن كثيرا إذا ما غزتها منتجات الإرهاب العالمي ، فهي منتج و مستهلك و مورد و مصدر لهذه المادة الحارقة [3] .كما يطرح التساؤل في كل مرة عن ما الجدوى من تحريك أمريكا لترسانتها العسكرية الضخمة لمواجهة الإرهاب ؟ و عن اللاتكافؤ بين القوة المرسلة و الأهداف المعلنة ؟

---

[1]– نفس المرجع ص95

[2] المرجع نفسه ص 95

[3] المرجع نفسه ص 100

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ففي كل مرة تحرك الولايات المتحدة أساطيلها دفعة واحدة كما لو أنها ذاهبة فعلا الى حرب عالمية ثالثة أو حرب ضد دولة عظمى ! فيفسرها الكاتب الصافي سعيد بأن السلاح النووي سيضعها وجها لوجه أمام المغامرة الكونية و بعبارة أخرى فإن السلاح النووي لم يعد يخيف أحدا غير الذي يملكوه فهي تبرز ترسانتها لتوضيح قوتها لمن لا يملك النووي . و واضح أن أمريكا لم تعقد صفقتها مع إيران إلا حين تأكدوا أن السلاح النووي يقوم بردع مالكيه قبل ردع الآخرين [1] .و أن الإرهاب أصبح عدوا للجميع و أن إيران عليها أن تنخرط في الحرب ضد الإرهاب ، و دون أن تخفي الولايات المتحدة الشعور أنهم لن يتغلبوا على الإرهاب إلا إذا أخرجوا إيران من العزلة و قدموا لها مكافأة هي الاعتراف بها و بقوتها لكسبها في الحرب ضد الإرهاب [2].

و إن انقسام الدول العربية مكنت اسرائيل من التثبث و فرض كيانها و قبيل عام 1967 قال المؤسس بن قوريون لاسحاق رابين رئيس الأركان آنذاك:" ليست القنبلة النووية هي التي ستحمي اسرائيل و إنما الحرب الأهلية العربية هي التي ستجعل من إسرائيل دولة قوية و مهابة " [3]

و يخلص الكاتب الصافي سعيد في رؤية استراتيجية حول مواقع اللاعبين الدوليين أن داعش ولو كانت عنيفة و جهادية فهي ضرورية للولايات المتحدة الأمريكية لإدارة لعبتها بنجاح فإذا كانت إيران تقوم بدعم الشيعة دون أن تتورط في العداء مع السنة فإن السعودية تشهر عداوتها للشيعة و تبنيها للسنة حيث اتجهت بنفسها إلى الحرب ضد حوثيي اليمن (الشيعة) أما تركيا فتحاول الوقوف في مكان يبعد و يقرب نفس المسافة من الجميع ، أما الكيان الصهيوني فهو يدفع نحو تدمير جميع العرب بجميع العرب إن كانوا شيعة أو سنة وذلك للاستحواذ على مزيد من الأراضي و الثروات و التحكم في مفاتيح الجغرافيا السياسية لمنطقة تمتد من المتوسط إلى بحر الصين [4].

---

[1] المرجع نفسه ص 105

[2] المرجع نفسه ص 106

[3] – مذكرات بن قوريون ، مساجلات جمعها شمعون بيريز، صدرت بالفرنسية عن دار لوساي في 1985 كذلك كتاب بن قوريون يتكلم ، فرنسا باريس دار نشر ستوش 1970

[4] – جيوبوليتيك الدم : مرجع سابق، ص 148

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com